الأصول القرشية البابلية
لديانة عرب الحجاز الوثنية

د.قدوري عبدالكريم[1]

إن الباحث في الديانات العربية قبل الإسلام، يصطدم بمشكل عويص وهو غياب الوثائق المكتوبة حول ديانة العرب القدامى. فكل الأخبار التي بين أيدينا، مصدرها كتب الإخباريين الذين كتبوا عنها في العصور ما بعد الدعوة الاسلامية و أهم كتاب وصلنا هو كتاب "الأصنام" لابن الكلبي الذي فصّل فيه عن معتقدات وتقاليد العرب الدينية، بالإضافة إلى مؤرخين أعاجم من أمثال هيرودوت الذي ذكر في كتابه "التواريخ " شدّة تدين العرب و العبادة التي يولونها لإلهتهم اللاّت و التي يدعوها أليلات والتي لا يُبرمنّ عهداً إلاّ استقساما بها[2] أما التنقيبات الحفرية الحديثة فقد كشفت في بعض المناطق التي سادت فيها الحضارة المدنية مثل اليمن و البتراء كتابات تشير الى ديانة العرب ما قبل الإسلام ، بينما لم يصل الينا من ديانة العرب في الحجاز إلا ما تناقلته الأخبار. ولعل أهم وثيقة وصلت إلينا هي القرآن الكريم الشاهد على معتقدات العرب قبل الدعوة المحمدية فلفظة "الكفار" و " المشركين " وحدهما تحملان دلالات عميقة عن العبادات التي كانت سائدة في جزيرة العرب و وتعني لفظة شرك في لسان العرب: وأشرك بالله : جعل له شريكا في ملكه ، تعالى الله عن ذلك ، والاسم الشرك . قال الله تعالى حكاية عن عبده لقمان أنه قال لابنه : يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . والشرك : أن تجعل لله شريكا في ربوبيته[3] .

فالغالب على ديانة العرب آنذاك، هو الإعتقاد في الأصنام و الأوثان، وخصوصية هذه الوثنية ،أنهم كانوا يعتقدون بوجود إله واحد و هو الله في الحجاز و

---

[1] أستاذ محاضر شعبة علم الاجتماع ، جامعة سعيدة الجزائر

[2] (Hérodote , Histoires , Maspéro, Paris , 1980 , P155

[3] ابن منظور، لسان العرب، **باب الشين، فعل شرك**

الرحمان في اليمن . ولكن هذا الاعتقاد ليس وليد دين وكتاب مقدس ، بل أنه مجرد تقليد توارثوه عبر الأجيال .فلم يتكلم هذا الرّب مع العرب ولم يشرّع لهم ولم يهبهم نظرة لبداية الكون و نهايته. كان نظرهم محجوب عن رؤية دينية شاملة للوجود ، وعوض ذلك ابتدعوا أصناما و أوثانا كسبيل وحيد للتواصل معه.اتخذوا هذه الأصنام و الأوثان وسائط بينهم و بينه.و يعدد ابن الكلبي ثلاث مائة وستين صنما عبدتها العرب في الجاهلية و جمعتها في الكعبة .

لا يهمنا في هذا البحث تعديد كل هذه الآلهة بل نقف عند أهمها و التي كانت تلعب دوراً ذا أهمية في الحياة الدينية لعرب الحجاز التي كانت تعبدها، **بل الأهم عندنا هو دراسة أصولها في عمق الثقافة الدينية المشرقية عموماً و هل فعلاً كانت العرب تعرف الله الواحد المتعالي بالمعنى الإسلامي وتجعل من الأصنام مجرّد وسائط؟** للإجابة عن هذين السؤالين نفترض أن عرب الحجاز لم يعرفوا التوحيد على الإطلاق، و إنما كانوا يعتقدون في آلهة متعدّدة جاءت بها قريش من شمال الجزيرة موطنها الأصلي ولم تبتدعها العرب مروقاً عن التوحيد ولم يأت بها عمرو بن لحي الخزاعي على ما يدّعيه الاخباريون من شمال الجزيرة . و لإثبات ذلك سوف نبحث في رموز آلهتها الأساسية هبل و اللاّت و العزى و منات.

شبهة التوحيد الجاهلي:

لم يقتصر العرب القدامى على عبادة الأصنام و الأوثان فقط ، بل عبدوا النجوم وبعضهم عبد النار بتأثير من الفرس و المجوس كما أن قبائل منهم اعتنقت اليهودية و النصرانية و التي رغم عدائها المعلن للوثنية لم تستطع الانتشار و التأثير بشكل استطاع أن يبعد العرب عن وثنيتهم، و لدينا بين ايدينا وصف شامل لديانة العرب قبل الاسلام، هذا الوصف لمكسيم رودنسون في كتابه الشهير"محمد" ،تقول مقدمة هذا الكتاب:"لم يهتم البدو إلا قليلا بالدين ،على ما يبدو،لقد كانوا واقعيين ،ضعيفي الخيال .وكانوا يعتقدون بأن الجن و الأرواح اللامرئية تعمر الأرض و تتظاهر على شكل حيوانات ،و بالنسبة إليهم فإن الأموات عند قضائهم يواصلون

حياة تعيسة على شكل أشباح يقدّمون اليهم قرابين و يرفعون فوق قبورهم أنصابا و ركامات صخرية، بعض الأشجار و الصخور (وبخاصة النيازك التي تحمل شكلا مقارب للأشكال الانسانية)و التي كانت بالنسبة اليهم موطنا للأرواح و الآلهة . هذه الأخيرة كانت تسكن السماء ومنها النجوم و الكواكب ومنهم أيضا حكماء قدامى ألّهوا. إن قائمة هذه الكائنات الإلهية، وخاصة المكانة التي كانت تحتلها، تتغير حسب القبائل [ولكن نجد هناك آلهة من الأهمية بحيث كانت تعظم في كامل أنحاء الجزيرة وبالخصوص الله " الرب ، الإله " تشخيص للعالم الإلهي بشكله المتعالي ،خالق العالم وحارس الإيمان "[4] وهذا ما تعنيه من وجهة نظر الإسلام، كلمة المشرك أو الكافر، فالعرب حسب هذا النص كانوا يعتقدون في الله العالي و الخفي – وهذا ما نشكّ في صحته- وفي ذات الوقت وبحكم ضعف خيالهم الذي ليس طبيعي، بل أن الظروف الجغرافية الصحراوية وفقرها من موارد العيش الدائمة و المستقرة التي جعلت هؤلاء في الغالب- قبائل مترحلة تبحث بشكل دائم عن قوتها- أبعد عن التأمل المجرد في الخلق و الموت و الحياة ومع اعتقادهم في العالم المرئي فإنهم لم يكونوا ليفكروا فيه او يتأملوا بل حاولوا استئناس العالم الصعب الذي كانوا يعيشون فيه بأشكال جامدة من صخور وجبال و كائنات حية من نبات وحيوان، بصفتها مواطن للأرواح و الجن و الدليل على ما قال رودنسون من أن العرب كانت تعتقد في الله خالق الكون هو حضور هذا الإسم كسيد للعباد في شيوع إسم عبد الله كما أن العرب كانوا يستقسمون به في مجالسهم و أشعارهم أيضا وكثيرا ما كانوا يسمونه " اللهم ".

للعرب نظريتان في أصل الوثنية:

وللإخباريين العرب نظريتان في أصل الوثنية الأولى لابن الكلبي، و الذي يستوثقه المؤرخون المحدثون إذ يقول " و كان الذي سلخ بهم(يقصد العرب) إلى

-Maxime Rodinson, Mahomet , Editions du seuil , troisieme édition Paris , 1974 , p36-37. [4]

عبادة الأوثان و الحجارة أنه كان لا يضعن في مكة ضاعن إلا احتمل حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم..... . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث ابراهيم و اسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا و نسوا ما كانوا عليه و أستبدلو بدين ابراهيم و اسماعيل غيره فعبدوا الأوثان ، و صاروا إلى ما كانت عليه الأمم من من قبلهم "[5] و كانت قريش تعتقد أن لله ثلاث بنات : اللات و العزى و مناة و قد ذكرها القرآن متهجما على الشرك و الوثنية" ألكم الذكر و له الأنثى إنها لقسمة ضيزى " وسميت أيضا الغرانيق الثلاثة. وعن أصل هذه الأصنام_ وهذه هي النظرية الثانية_ يقول بن هشام في السيرة النبوية: إن عمرو بن لُحَى خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره؟ فلما قدِم مآب من أرض البلقاء؟ وبها يومئذ العماليق - وهم أولاد عملاق, ويُقال: عمليق؟ بن لاوذ؟ بن سام؟ بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام؟ فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها؟ فنستمطرها فتمطرنا؟ ونستنصرها فتنصرنا, فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدونه، فأعطوه صنماً يُقال له: هُبل، فقدم به مكة؟ فنصبه؟ وأمر الناس بعبادته وتعظيمه "[6]

فقد كان العرب على دين ابراهيم موحدين لله، ودليل ذلك إيمانهم بالله العالي خالق العالم بحسب ما كسيم رودنسون. إن هذه الظاهرة عامة في الشرق الأدنى القديم ، كان بنو إسرائيل يؤمنون بيهوه كإله واحد ، ولكنهم كانوا يعبدون العجل المقدس الإله الذي كانوا يعبدونه في مصر قبل الخروج وحدث ذلك لما غاب عنهم نبيهم موسى ليتعبد في طور سيناء ،وعند عودته وجدهم يقيمون طقوسا وثنية

---

[5]) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكريا باشا، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، القاهرة، 1995 ، ص 6.

[6]) ابن هشام ،السيرة ، ص 77.

وقد جعلوا لهم عجلا يتعبدون اليه[7] وهذا رأي المحدثين أيضا في رؤيتهم لديانات الساميين القدامى ومنهم روبرتسون سميث في دراسته الشهيرة لديانات الساميين القدامى الذي يرى فيه أن البشر و آلهتهم في المجتمع السامي كانو يشكلون كيانا اجتماعيا و سياسيا ودينيا واحدا[8] . ويشير إرنست رينان Renan "إلى ان العرب هم مثل سائر الساميين الآخرين موحدون بطبعهم، وان ديانتهم هي من ديانات التوحيد. وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين, وقد أقام "رينان" نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للالهة التي عبدها الساميون، فادعى ان الشعوب السامية كانت تعبد إلهًا واحدًا هو "أل" "إيل" الذي لحقه تحرف من خلال تداوله بين هذه اللهجات، فدعي بأسماء أبعدته عن الأصل، غير ان أصلها كلها هو إلَه واحد، هو الإله "أل" "إيل".[9] وحسب هذه النظرية فإن الشرك هو موقف ديني لشعوب تفرعت عن الجماعة الأم المعتقدة بالتوحيد ونتيجة لاحتكاكها بشعوب أخرى و نظرا أيضا لعوامل طبيعية و اجتماعية خاصة، و مع مرور الزمن نسيت هذه الشعوب إلهها الواحد و اتخذت له شركاء تعبدهم و هذا تأكيد لما و رد على لسان الإخباريين و كتاب السير . . ويقول في هذا الموضوع ، السيد جواد علي:

"اننا لا نستطيع ان نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الإسلام استناداً إلى ما لدينا من كتابات جاهلية، لعدم ورود شيء عن ذلك. فالنصوص التي وصلت إلينا، هي نصوص فيها أسماء أصنام، وليس فيها مايفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده، إلا ما ورد في النصوص العربية الجنوبية

---

[7]) يذكر هيرودوت ظاهرة عبادة العجل الذي اتخذه بنو إسرائيل ، صنماً عند مكوثهم في شبه جزيرة سيناء بعد الخروج ، حيث يتكلم عن تمثال لبقرة من خشب ألبس ذهبا و اتخذ ه تابوتا لجثمان ابنة الفرعون و لشدّة حبه لها فرض على شعبه التعبد له Histoires P125

[8]روبرتسن سميث ، محاضرات في ديانة الساميين ، ترجمة: عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1997 ، ص 40.

[9] جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة 2 ، جامعة بغداد، 1993الجزء السادس، بغداد، ص35.

المتاخرة من عبادة الإلهَ "ذي سموى" أو "ذو سموى"، أي صاحب السماء، بمعنى إلهَ السماء. وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية اللتين دخلتا اليمن ووجدتا لهما أتباعاً هناك، بل حتى هذه العبادة لا نستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً، فنقول انها عبادة توحيد خالص تعتقد بوجود إله واحد أعلى فهو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد"[10] . والاعتقاد الإله أيل أو عليان أو العلي ، كان منتشراً في كل ربوع الجزيرة العربية وخاصة في المناطق الشمالية منها و يبدو أن أصله بابلي فلفظة بابل ذاتها تدل على اسم مركب من باب و إيل وتعني باب الله وكان يعد إله المطر والمحاصيل ، وزوجته عشتار إلهة الخصب وعبدت كالآلهة الأم ، وكانت لها ألقابا عديدة منها(بعلة) أي سيدة ، واهتموا بعبادة قوى النمو والتوالد والممثلة في بعل إله المطر، باعتبارهم مجتمعا زراعيا ويهتم بتربية الماشية.

في المعتقدات الدينية للشرق الأدنى القديم كان "بعل" الإله السامي يشارك أباه " أل " السيادة على العالم، فكانا يتقاسمان الوظائف " فأل يمتلك القِدم- فهو شيخ - و الحكمة التي لا تدرك ، و العلم المطلق و الخير و الرحمة ، وهو الذي يقدر في آخر المطاف مصائر البشر ، و لبعل " العجل " اليقظة و الشباب و القوة الجنسية و النصر في المعارك و التدخل في العناصر الطبيعية للفوضى و ضمان المياه، وهو إله "أوغاريت" مملكة سامية و عاصمتها رأس شمرا والتي وجد فيها علماء الآثار ألواحا من الغني في المعلومات حول هذه الحضارة السامية و الواقعة في شمالي سوريا . وقد عبد كنعانيو فلسطين نفس هذه الآلهة فهم يعتقدون من جهة، بوجود إله متعالي أزلي ومطلق الصفات من الحكمة، و الخير ،و العلم و من جهة أخرى بإله ملموس مثلوه بصورة العجل " فبينما بعل يسكن في سحب السماء الملامسة للأرض عبر قمة جبل صفون SAPHON يعيش أل في وسط أسطوري " على منبع الأنهار وفي ملتقى البحرين ... فالعرب شعب سامي مثله مثل باقي شعوب الجزيرة ، كانوا يعبدون آلهة أنثوية و التي نسبوا أبوتهن لله، وهنا الآلهات الشهيرات اللآت و

[10] نفس المرجع ، ص 36ـ37.

العزى ومناة وكما أن الديانة الأوغاريتية ومعها الكنعانية جعلتا بعل الإله موضوعا للعبادة و التبجيل ، لقربه من هموم البشر: طلب المطر والخصب،و إبعاد الجفاف في حضارة زراعية، لم يجعلوا لـ " أل " إلاله الأعلى إلا وظيفة واحدة وهي انقاذ بعل من براثين الإله "موت "، و إعادته إلى الحياة و هناك أسطورة تحكي هذا الموت و الانبعاث " يدخل بعل في صراع مع الاله "موت" رمز الجفاف فيقتله هذا الأخير ويرسل والده "أل" ابنته عناة للبحث عنه فتصارع "موت" تشطره بسيفها ، تذروه بمروحتها، تحرقه بنارها، تسحقه بمطحنتها اليدوية ، وتبذره في الأرض " تعبر هذه الأسطورة عن قلق الشعب الأوقاريتي إزاء فترة الجفاف ،والتي يرمز لها بانتصار الإله "موت"، الذي يمثل فعلا الموت المسبب للقحط و الجفاف وموت الزرع و الدابة و الإنسان ، لأن حياته مرتبطة بهما بينما يقابله بعل الخير إله المطر و إله الخصب و الحياة[11] قد يتساءل القارئ لماذا هذا التعريج إلى أساطير أوغاريت، و التركيز على هذه الأسطورة بالذات ؟ الجواب هو أن هذه الأسطورة؛ أسطورة الخصب السورية القديمة تحكي مأساة "أل" لفقدانه ابنه "بعل". "أل" الحكيم الحليم، و خالق المخلوقات كلها تنزع عنه الأسطورة رغم عظمته، صفة الإله الشديد القوى فتصوره عجوزا لا قدره له في التدخل لتسيير شؤون الكون وتوكلها ابنه " بعل " السيد الذي يرعى السحب و يسقط الأمطار حتى تحيي الدابة وينمو الزرع. فبقدر ابتعاد" أل "و تعاليه- لأن "أل" في اللغة الآرامية هو العالي- بقدر ما اقترب "بعل" من شؤون البشر إنه سيد الأرض. و إذن يبقى بعل هو سيد البشر، و موضوع عبادتهم وتقديسهم له ، بفضله يسقط المطر وينبت الزرع و يغتبط الفلاحون بمحاصيلهم. " وبعضهم يذهب إلى أن لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه، فهو غير مشتق من العربية ويقول أنه عبراني أصله هبعل ومعنى بعل السيد وزاد على ذلك فقال إن الهاء في التعبير العربي أداة التعريف مثل الـ في اللغة فبإضافة هذه الأداة الى بعل يريد الأكبر و قال : أما العين

[11] الماجدي، المعتقدات الكنعانية، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، 2001، ص 148-149

الزائدة ، فسهل إهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالإستعمال وخصوصا في لفظ بعل لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه " بل " بإهمال العين وهو اسم هذا الإله عندهم وقيل أن هبل القرشي هو بعل الإسرائيلي " [12].

إذا كان هذا القول صحيح في جزء منه فإن جزءا ليس بالهين قابل للنقاش. فبعل ليس كما أشرنا أعلاه إسرائيلي بل كنعاني ، ولم يتبناه بنو إسرائيل إلا بعد خروجهم من مصر و استقرارهم في بلاد كنعان متأثرين بثقافة شعبها[13]

ولا شك أن بقايا هذه العبادة استمرت لدى فئات من اليهود أتوا بها إلى الحجاز حينما هاجروا اليها وعلى افتراض ذلك فإننا لا نجد من عرب يثرب من الأوس والخزرج أقرب العرب إلى اليهود من حيث المعاشرة و الجوار،لا يعبدون آلهة إلا اللاّت وهذا ما يؤكده الإخباريون والمؤرخون المحدثون ولا تعظم هبلاً وتقدسه إلا قريشا في مكة، حيث أختير له التعالي على باقي الآلهة، و في مكان متميز في الكعبة صنم مكسور الذراع و لقداسته عوضت (عاهته) هذه بذراع من ذهب.

فكيف أتى هذا الإله الى مكة ؟ إنّنا نشك في صحة ما قاله ابن الكلبي حول إتيان عمرو بن لحي الخزاعي هذه الآلهة من أطراف الجزيرة الشمالية ليوزعها على قبائل العرب فهذا الإدعاء برأينا قد تزامن مع المرحلة الإسلامية، أسطرت له العرب لما كانت تحمله قريشا من ضغينة تجاه قبيلة خزاعة التي سبقت قريش في السيادة على مكة،هذه السيادة التي انتزعتها منها قريش بالقوة على يد قصي بن كلاب بعد صراع مرير، من الحروب والغزوات. فإذا صح هذا الإدعاء فإنه يتحدى ظاهرة التثاقف و الإتصال بين الثقافات و الحضارات وحتمية التواصل والتأثير فيما بينها.

---

[12] محمد إبراهيم القيومي ،تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، ط4 ، دار الفكر العربي ،القاهرة ، 1994 ،ص 44

[13] صموئيل هنري هوك، منعطف المخيلة البشرية،ترجمة: صبحي حديدي، ط 1،دار الحوار، اللاذقية، 1983، ص 69-70

ضف إلى ذلك أن العرب قوم ساميون اشتركوا مع باقي بني جلدتهم في المعتقدات والديانات كما تحرك الشعوب في هذه المنطقة كثف الاتصالات فيما بينها، فكان من قبائل العرب من كانت تنتقل باستمرار لطبيعة معاشها المرتبط بالماشية، و ضرورة البحث عن الكلأ و الماء لضمان حياتها و ما تملك .فمنها من كانت تجوب كل ربوع الجزيرة، ومنها من هاجرت من جنوبها إلى شمالها، ومنها من استقرت في الحجاز ومنها من واصلت هجرتها الى أقصى الشمال، فأقامت مماليك وتلذذت بذوق الإستقرار. ومنها من قدمت من الشمال الجزيرة و هذا ما تقوله قريش عن نسبها: انطلاقا من جدّها المؤسس قصي بن كلاّب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة (واسم مدركة عامر) بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن بن عدنان بن أد[و يقال أدد][14] إلى أن تنتهي السلالة إلى إلى نوح و اللافت في هذه الشجرة هو و رود أسماء مثل نزار و إلياس و وأدد ؛ فإلياس هو اسم نبي إسرائيلي (أليشع بالعبرية) ونزار هو اسم إله فينيقي و أدد هو اسم إله الأعاصير والعواصف البابلي[15] أو حدد فهو الإسم الثاني لبعل أوغاريت إله الكنعانيين[16] و أصله من شمال الجزيرة و في الشام على وجه الخصوص..

هذا يفسر لنا قدوم الإله "أل" إلى مكة مدينة قريش هذه الأخيرة هاجرت به إلى قلب الجزيرة من شمالها و سمي بعد ذلك الله وتبجيلا و احتراما له كان تقول العرب "أماه" و "أبتاه" فإضافة الألف و الهاء رمز للتعظيم و الاحترام، كما قالت باسمك اللهم و هذا ما أتى في وثيقة صلح الحديبية ومعروفة عن سهيل بن عمرو المفاوض القرشي الذي التقى برسول الله صلى الله عليه و سلم لعقد صلح

---

[14] أبو محمد عبد الملك بن هشام ، سيرة النبي ، الجزء الأول ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص: 1

[15] عبد الحميد يونس، معجم الفولكلور، مرجع سابق، ص 38

[16] صموئيل هنري هوك ، منعطف المخيلة البشرية، بحث في الأساطير، ترصبحي حديدي، ط : 1، دار الحوار، اللاّذقية1983 ص67 .

الحديبية[17] و عند تحريره اشترط على الرسول أن يكتب على رأس وثيقة الصلح باسمك اللهم عوض باسم الله و يبدو منه هذا مجرد تعنت لمخالفة المسلمين فالله و اللهم سيان في المعنى و قبل رسول الله ذلك لأنه لم ير فيه مخالفة للعقيدة الجديدة فالمسلمون أيضا يذكرون الله بلفظة اللهم عند الدعاء.

كما ان اللهم هي المرادف للإله الذي كان يعبده إبراهيم عليه السلام و كانت بنو إسرائيل تعبده دون غيره حتى أدت ديانة موسى الداعية إلى عبادة الإله يهوه هذا الإله هو " إيلو هيم "[18].

آلهة عرب الحجاز:

-هبل:

كان من أعظم أصنام العرب ويقال بأن عمرو بن لحى نصبه على البئر الذي حفره إبراهيم عليه السلام في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته فكان الرجل إذا عاد من السفر مر عليه قبل مروره ببيته وحلق رأسه عنده وكان لديه حاجب كما ارجعوا اسمه لعده أشياء منها الهابل وهو كثير الشحم واللحم ومنهم من قال أصله هبعل فالهاء عندهم كالتعريف أل وجاءت بعل بمعنى السيد كما عرفت عند إسرائيل "بل" بإلغاء العين وكان هبل ولكن هذا الطرح مغلوط إذا ما أخذنا بالاعتبار أن بعلاً عُبد و قُدّس في مجتمع زراعي ماطر و هو سوريا و فلسطين فكيف تستعيره شعوب تعيش في قلب الصحراء لا تعتمد الزراعة في اقتصادها و هي شعوب لم تستقر إلا في بعض الواحات كيثرب الطائف و نجران و تهامة باستثناء مكّة التي كانت مركز عبور للقوافل التجارية. فالاستعارة الثقافية لا يمكن أن تكون اعتباطية إذ يجب أن تتناسب مع النظام العام للثقافة المستعيرة[19]. فإذا ما

---

[17] ابن هشام ، السيرة ، القسم الثاني ، الجزءان 3و 4،ص 317.

[18] Histoire des religions, OP Cit, P343

[19] عيسى الشماس، مدحل إلى علم الانسان(الانثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

دمشق، 2004، ص 52http://www.awu-dam.org

راعينا صفات بعل والذي يرمَز له بالثور أو ممتطياً ثوراً[20] فإذا بحثنا في رمزية الثور في ثقافة عرب الحجاز قبل الإسلام فإننا لا نعثر عليها إطلاقاً[21]إضافة إلى كون معبده يقع على رؤوس الجبال و أكبرهم معبد زافون و يتوافق هذا مع مكانته السماوية كإله للرعد و الصواعق والمطر بينما يقبع هبل في جوف الكعبة. لنقف عند هذا الإله الغريب الأطوار، المكسور الذراع. يقول ابن الكلبي:" كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها عندهم هُبل - ويتابع ابن الكلبي كلامه عن هبل فيصفه لنا - بأنه مصنوع من عقيق أحمر ، ويتخذ صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، وأدركته قريش بدون يد ، فجعلوا له يداً من ذهب " [22]

ولعل أبرز ما عرف به هبل عند العرب أنها كانت تستسقم عنده بالقداح في أكثر من مناسبة نكتان الأولاد وإقامة حفلات الأعراس والمآتم . وعند هبل كانوا يميزون صريح النسب من المشكوك في نسبه . يحصل هذا بعد أن يقدموا بين يديه مائة درهم ، وجذورا تعطى كلها لصاحب القداح أي الكاهن الذي يقوم بضرب القداح . ويقال إن القداح التي كانت عند هبل سبعة يستسقم باثنين منها لمعرفة صريح النسب أو ملصقه . ويقال أن عبد المطلب جد محمد ضرب عنده بالقداح على ولده عبد الله ، فخرجت القداح على الإبل فنحرت عندها ثم تركت " هذا ما يحكى عن علاقة العرب بهذا الاله، و أية علاقة إنه يتدخل في أمور البشر و تنظيم علاقاتهم الاجتماعية، يستنطقه العرب حول حياتهم إذن فهو مقرر مصائر البشر. فالله عندهم كان هبل و هذا هو رأي فلهاوزن[23] و رأي جواد علي أيضاً.

---

[20]) خزعل الماجدي، المعتقدات الكنعانية، الطبعة 1، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، 2001، ص136

[21]) ينظر: محمد عجينة، معجم الاساطير العربية الجاهلي و دلالاتها بجزئيه، دار الفرابي، الطبعة الأولى، 1994

[22]) ابن الكلبي، مرجع سابق، ص 28

[23] عبدالمعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة 1937 ، ص 144

ونقرأ في معجم الحضارات السامية أن هبل أو هبال" من كبارآلهة الكعبة، مثلوه في شكل بشري. معنى اسمه بالأرامية البخار أو الروح. اقتبست عبادته من مؤاب أو من بلاد ما بين النهرين[24]"

وها هي ملامح هذا الإله تتضح شيئاً فشيئاً : إنه إله المياه الجوفية الحارّة و من هنا تسميته ب"البخار" إنه إله العالم السفلي، والعالم السفلي في الثقافة المشرقية القديمة هو عالم الأموات و كان صنمه موضوع في بئر جافة في جوف الكعبة اسمها"الأخسف"، وكأني به الإله الحارس لبوابة العالم السفلي و يذهب منذر صفر أن هبل ما هو إلا تلحين لغوي لاسم الإله يارحيبول إله المياه الجوفية الساخنة[25] ممّا يؤكّد سلطته على العالم السفلي وكانت تودع له الهدايا النفيسة كالذهب ولم تبخل عليه قريشاً نفيس المعادن حيث أهدته ذراعا من ذهب مكان ذراعه المقطوعة، و أيضاً عبد المطلب لماأوكلت له السقاية ضرب على باب الكعبة "بيته" غزالتين من ذهب. و كل القرائن التي بين أيدينا تدل الأصل البابلي برأي توفيق فهد" الفعل خبالو، بالآكادية ومنه انحدر اسم هبل، الذي يعني عملية.....قمع، و حبس، وإخفاء، و قتل. و بهذا قد يكون إلهاً مات ميتة عنيفة كما هو الشأن بالنسبة لأبال (سفرالخروج)، و باللغة العربية هابيل.

فالله إذن عند العرب والذي كانوا يذكرونه كانوا يقصدون به هبل ذاته للصفات الجبارة التي أ وكلت له وما دام حارساً للعالم السفلي فإن بناته اللات و العزى و مناة هن اللاّئي يشفعن للبشر كوسائط بينهم و بينه و يذهب علماء الساميات أن هذه الآلهة الشيطانية هن قرينات الإله الشيطاني ملك العالم السفلي

---

[24] هنري.س. عبودي،معجم الحضارات السامية،الطبعة الثانية، جروس برس،طرابلس-لبنان،1991 ، ص:881

[25] روبرتسن سميث،محاضرات في ديانات الساميين، ترجمة،عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998 ، ص180

في الديانة الآكادية-البابلية فهو زوج اللاّتو أو اللاّت العربية وهي إلهة الشمس و تشاركه في ملكه أيضاً ماميتو مناة العربية و "لاز" و هي العزى[26].

نرغال إله مدينة كوثى البابلية:

و لكن كلّ الأبحاث حول ديانة العرب قبل الإسلام لا تذكر نرجال إذ لا يعقل أن تنتقل شريكاته في ملك العالم السفلي من دونه. نرجال أو نرغال و هو أحد الآلهة التي أنجبها الإله إنليل باقترانه بالإلهة ننليل و يسمى أيضاً مسلمتاي و هو أيضا إله الموت الذي يمثله كوكب المريخ، و هو إله الأمراض.....و هو إله الطاعون إيرا"[27]

ويستدلّ الباحثون بتواجده في مكة من خلال البحث في أسماء مكة و التي كانت تحمل اسم **كوثى** هذه المدينة الرافدينية التي بني فيها معبده يعرّفنا بها ياقوت الحموي في معجم البلدان وأيضاً ابن منظور في لسان العرب حيث يأتي في هذا الأخير و في باب الكاف: " كوثى من أسماء مكة سمعت عبيدة يقول سمعت عليا كوثى التي بالسواد، فما أراها عربية ، ولقد قال محمد بن سيرين عليه السلام - يقول : من كان سائلا عن نسبتنا، فإنا نبط من كوثى.

وروي عن ابن الأعرابي أنه عليه السلام - فقال : أخبرني يا أمير المؤمنين عن أصلكم ، معاشر قريش قال : سأل رجل عليا أراد كوثى واختلف الناس في قوله : نحن قوم من كوثى ، فقالت طائفة فقال : نحن قوم من كوثى أراد كوثى العراق ، وهي سرة السواد التي ولد بها إبراهيم عليه السلام وقال آخرون : أراد كوثى مكة ، وذلك أن محلة بني عبد الدار يقال لها كوثى" فقريش إذاً نبطاً من كوثى مدينة نرغال ضف إلى ذلك أن حي بني عبد الدار القرشية هو المسمى بذلك و لا غرابة كون بني عبد الدار كانوا سدنة الكعبة "[28] رهبان آ لهة العالم السفلي

---

[26] Ibid, P371

[27] خزعل الماجدي، بخور الآلهة- دراسة في الطب و السحر والأسطورة و الدين، الأهلية للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 1998، ص319

[28]) ينظر: لسان العرب، باب الكاف، فعل كَوَثَ، و كذلك معجم البلدان لياقوت الحموي.

ولكن يتوجب علينا الآن البرهنة على حضور نرغال في الوعي الديني العربي قبل الإسلام.

تحكي كتب السيرة قصة غزو أبرهة الحبشي لمكة بغية هدم الكعبة عندما عزم أبرهة على هدم الكعبة برك الفيل في المغمس ولم ينهض و خرّ قوى الجنود" فأتتهم طيراً تحمل حجارة من سجيل ترميهم بها فلم ينج منهم أحد و يروي بن إسحاق أنه أول ما رؤي في أرض العرب: الحصبة، و الجذري[29]

و التي توجها القرآن بالآية الشهيرة سورة الفيل

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ } (سورة الفيل الآيات 1- 5)

فما معنى "حجارةً من سِجِّيْلٍ". قالوا: هي حجارةٌ من طين طُبِخَتْ بنار جهنم مكتوب عليها أسماء القوم، لقوله تعالى: "لِنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين".و يقول ابن إسحاق أن الطيور هذه" لها خراطيم نكراطيم الطير ، و أكف كأكف الكلاب" لدينا هنا كل ما يدلّ على صفات نرغال أو نرجال السومري-البابلي فهو إله العالم السفلي الجهنمي يصوره السومريون في صفة كلب مجنح و الحديث النبوي أمامنا يدل على أنه ليس غريباً عن الحرم أي الكعبة . عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول - حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمررنا بقبر - فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « هذا قبر أبي رغال ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ،فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه ، وآية ذلك: أنه دفن معه غصن من ذهب،

[29]) عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الاسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص 142

إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه، فابتدره الناس، فاستخرجوا الغصن »[30] و قد يكون الغصن هو السيف الذي يحمله هذا الإله لأنه إله الحرب.

و ما يؤكد طرحنا كون أبا رغال هو نرجال أو نرغال السومري البابلي هو تعريفه الذي يأتي جامعا من خلال الأخبار و الحديث والذي يرد في معجم الفولكلورهو:"شخصية أسطورية..... دفن في المغمس و جرت العرب على رجم قبره.

وتذهب رواية أخرى إلى أن أبا رغال كان الوحيد الذي بقي من ثمود؛ إذ كان يقيم في مكة يوم نكبة ثمود، فحمته قدسية المكان من الهلاك، بيد أنه ما إن ترك مكة حتى وافته المنية. و روى صاحب الأغاني أن أبا رغال كان ملكاً للطائف و جدّاً لثقيف. ويقول الجاحظ و ابن قتيبة و المسعودي إن الثقفيين قتلوا أبا رغال لقسوته و جوره" هذا ما لدينا عن نرغال العرب. و يبدو أن الذاكرة العربية لم تحفظ الكثير عنه لأن وظائفه قد أنيطت إلى قريناته و لم له أن يحتلّ المكانة التي كانت له في وادي الرافدين ما دام الإله الأكبر في مكة هو هبل؟ و يبدو أن اندحار الأحباش يوم الفيل عزته إلى آلهتها و من بينها أبا رغال و الذي لم تكن له، على ما يبدو، إلا وظيفة حربية، و قامت بعد ذلك العقيدة الجديدة بطمسه لأنها أوكلت النصر على الأحباش إلى الله تعالى.

نستنتج من كل ما سبق أن كل من النظريتين حول انتشار الوثنية في الحجاز تنتمي إلى ميدان الخرافة فلا العرب كانت موحدة و زاغت عن التوحيد لعبادتها لحجارة البيت التي أدت بها إلى الميول شيئاً فشيئا للوثلية و عبادة الأصنام و لاهذا عمرو بن لحي الخزاعي استورد الأصنام من شمال الجزيرة لأن كلا الطرحين

---

[30] أبو السعادات ابن الأثير، جامع الأصول من أحاديث الرسول، (9522/11) www.ahlalhdeeth.com

[6]7) عبدالحميد يونس، معجم الفولكلور- مع مسرد عربي-أنجليزي، ص15 http://www.mohamedrabeea.com/books/book1_7278.pdf

لايصمدا أمام النقد الأنثروبولوجي في انتشار الثقافات، فالوثنية الحجازية كانية قرشية جاءت بها القبيلة من موطنها الأصلي وادي الرافدين و بلاد النبط.

الغرانيق العلى:

اللاّت: و يرجع الباحثون أصل اللات إلى اسم أصلي شمالي" عليلات" – السماوية- والتي ذكرها هيرودوت وذكرت في كثير من الكتابات العربية الشمالية و النبطية و يذكر الباحثون أن النبط عدّوا " اللات أماً للآلهة و قد عبدت اللات في تدمر و في ارض مدين عند اللحيانيين فمصدرها إذن الشمال من جزيرة العرب و لا يستبعد أن تكون القبائل المستعربة منها قد جلبتها عند هجرتها إلى الحجاز و قد ذهب بعض المتشرقين أن اللات إلهة شمسية و هي انثى[31] ، لأن الشمس في اللغة العربية مؤنثة و اللات. غنه الإله القمري ذا المتربع على الامتياز بين الآلهة الثلاث و يرد صريح القول في ذلك في القرآن الكريم " ألكم الذكر و له الأنثى " أي أنكم تعبدون هبل الذكر و الغرانيق الثلاث أبوها الله

و في النقوش التي جمعها ليتمان من آثار الحضارة الصفوية في سوريا نجد أدعيات و ابتهالات إله العلي من بينها تلك الموجهة إلى اللات:

" يا اللات امنحينا الخلاص" " يا اللات امنحينا النجاة"."يا اللات ساعدي (فلانا)" "يا اللات ارجوا أن أكون سالم"." يا اللات أمنحي فلانا النجاح و الرفاء" " يا اللات امنحيني الطمأنينة ".....إلخ.

و اللات هي الله قد أنّث[32]على ما يذكر الطبري و لعل اسم اللات أقدم في التراث الأسطوري المشرقي القديم" و ذكرت بعض المصادر أن اللات هي " أرشيكيجال" السومرية و عن سومر أخذها الساميون و البابليون و لقبت للمرة

---

[31] جرجي كنعان مفهوم الالوهة في الذهن العربي القديم،الطبعة الثانية ، بيسان للنشر و التوزيع ، بيروت ، 1996 ص 292

[32] ذكره محمد إبراهيم الفيومي. ، مرجع سابق ، ص 415

الأولى في إحدى القصائد البابلية التي تصف الفروسية و الحرب و هي ملحمة الملك أزدوبار"[33]. ولكن المصادر الميثولوجية تجمع على الإلهة ارشكيجال

أرشيكيجال تؤكده الأدعيات الموجهة إليها و المتعلقة بالنجاة والخلاص لأن أرشيكيجال هي إله الموت و المرض[34] و هذا ما يمكننا من إعادة النظر في دور الإلهة مناة كما نأتي إليه فيما بعد.

و كانت اللات موضوع عبادة أهل ثقيف ، إذ كانت عبارة عن"صخرة مربعة بيضاء بنَت عليها "ثقيف"، بيتا، صاروا يسيرون إليه، يضاهون به الكعبة، و له حجبة وكسوة و يكرمون واديه وكانت سر الله لآل " أبي العاص " إلى " أبي يسار" ابن مالك من ثقيف، أبو بني عتاب بن مالك، و كانت قريش، وجميع العرب يعظمونه أيضا، و يتقربون إليه حتى أن ثقيفا كانوا إذا جاءوا من سفر توجهوا إلى بيت "اللات" أولا للتقرب إليه و شكره على السلامة ثم يذهبون بعد ذلك إلى بيوتهم، و قد كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز[35] إذن كانت اللات من أعظم آلهة العرب كانت تعظمها ثالث أكبر مدن الحجاز و هي الطائف مدينة آل ثقيف الذين تولوا سدانتها وهذا لم يمنع العرب كلها من تقديسها و تعظيمها و لكن لكل قبيلة شرف و شأن في سدانة إلهها.

العزى:

العزى ثاني "بنات الله" في الأهمية بالنسبة لعرب ما قبل الإسلام " و العزى تأنيث للأعز بمعنى العزيز و هي أحدث من اللات ومناة، تمثلها شجرة عندها وثن تعبده غطفان و كان الذي اتخذ العزى ظالم ابن أسعد و كانت بواد من نخلة الشابية يقال له حراض، و كانت أعظم الأصنام عند قريش، و كانوا يزورونها، و

---

[33] ميخائيل مسعود، الأساطير و المعتقدات العربية قبل الإسلام، دار العلم للملايين ط1 بيروت 1994 ص 114.

[34] خزعل الماجدي، بخور الآلهة- دراسة في الطب و النحو و الأسطورة أنظر والدين الأهلية للنشر و التوزيع ط 1 عمان 1998 ص 291.

[35] جواد علي ، مرجع سابق ص228.

يقدمون لها الذبائح"[36] و لا شك أنه كانت إلهة القوة و العظمة العزى من العز و العز العظمة و إذا عبدتها غطفان فإن تواجدها في الكعبة هو دليل تعظيمها من قبل العرب كلها كانت تعبدها قريش و تعظمها لشرف قريش و عظمتها المستمدة منها فعزة قريش من عزة و عظمة العزى، فكان تمثلها بشجرة ليس غريب عن اسمها فالشجرة تغوص في أعماق الأرض بجذورها و تشتد بجذعها و تتعالى شماخة في السماء بأغصانها ولا ريب أنها كانت ربة الحرب عند قريش تهتف بها عند انتصارها على المسلمين في غزوة أحد فبينما كان المسلمون يكبرون الله كانت قريش ترد عليهم " العزى لنا و لا عزى لكم".

مناة:

ذكرها القرآن الكريم في سورة النجم مع إلهتين الأخريين " أفرأيتم اللات و العزى و مناة الثانية الأخرى".

و هي أسم صنم عظمته الأزد وغسان و كانوا يحجون إليه و رمزت له بصخرة في هذيل كما عظمته الأوس و الخزرج أيضا إذ يقول الشاعر:

إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

و منه يأتي في ما ذكر اليعقوبي أن هذا الصنم كان منصوبا بفدك مما يلي ساحل البحر و يغلب الإضاريون " أنه كان على ساحل البحر من ناحية الشمال بقديد" [37] و على غرا الآلهة الأخرى فقد كانت لمناة خدمتها أو مكانتها و هم الحطار بعد من الأزء.

و يذكر أبن الكلبي أن عرب المدينة كما غسان و الازد كانوا يحجون إليه حالقي الرأس كما كانت تعظمه قريش و خزاعة و أزد شنوءه . أما معنى مناة فقد اختلف الدارسون في معناها اللغوي فمنهم من ذهب إلى أنها تعني الموت من المنية

---

[36] ميخائيل مسعود مرجع سابق ص 116.

[37] الكلبي، الأصنام ، مرجع سابق ، ص13.

و المنية الموت و النتيجة أن مناة هي إلهة الموت بلا ريب و لكن بحثا معمقا يضع هذا الطرح موضع تساؤل حيث يقول الشاعر:

و لا تقولن شيء سوف أفعله حتى يتبين ما يمني لك الماني

و في هذا البيت نعني بصريح العبارة القدر و القدر هو المصير المجهول و ما الموت إلا جزءًا منه و في دراسة معمقة حول لفظة مناة و أصولها السامية ونقرأ في موسوعة ميتولوجيا و أساطير الشعوب القديمة " عن الشبه بين مناة العربية و بين Menota الآرامية و Menot العبرية كالشبه بين Meni الماني الواردة في البيت الشعري إله القدر أو إله الموت و هو في أغلب الظن معبودا كنعاني... و في اللغة "الإرمية" تعني الموت أو الأجل."

خلاصة هذه الورقة هي أنه يتوجب على الباحثين الغوص مزيداً في أعماق الثقافة الدينية المشرقية القديمة لأنها تشكل وحدة دينية تحتاج إلى كثير من التحليل و الدراسة لفهم عقلية العربي و موقعه من نظام الحضارة السائد في عالم اليوم.

حاولنا عبر هذا البحث المتواضع فهم هذه العقلية في مرحلة خطيرة ومتوتّرة توجب على الفاعلين التاريخيين تجاوزها بصفتها نتاج هذه العقلية الدينية التاريخية المؤسّسة و تم هذا التجاوز بنفس الأدوات الثقافية التي بلورتها ثقافة الشرق و كانت أبرز هذه الأدوات التوحيد الإلاهي و الذي كان نتاج عبقرية هذه الثقافة و لكن مثل هذه الدراسات تتطلب من الباحث الحذر المنهجي لتفادي الإسقاطات المستعجلة فانتشار القيم الثقافية من منطقة لأخرى يخضع لمقاييس عديدة منها الانتقاء فلكل شعب عبقريته فإذا استعار من منظومة ثقافية و عقيدية فإنه يكيف المادة المستعارة حسب بيئته و نظامه الاجتماعي فقريش نقلت معها المنظومة العقيدية البابلية الكنعانية و النبطية ولكنها لم تستعمل ألا ما يناسب حاجتها الروحية حسب بيئتها. فهذا هبل إله المياه الجوفية الصغير في بيئته السورية الماطرة، تحوّل إله أعظم في الحجاز، بيئة قحط تعتمد أكثر على مياه الينابيع و الآبار،

بينما استغني عن نرغال الذي كان إله حرب و إله جهنم و المنتصر على أبرهة و جيشه إلى شيطان يرجم لأن العزى أخذت مكانه كإلهة حرب و هبل أنيطت به مهام حراسة أبواب جهنم في جوف الكعبة.